هذيان حقيقي

مجموعة قصصية

هبة الحريري

إصدارات يقظة

هذيان حقيقي

هبة الحريري

إصدارات يقظة

03

هذيانٌ حقيقي، مجموعة قصصية.

الكاتب : هبة الحريري

الناشر : مجلة يقظة الإلكترونية.

البريد الإلكتروني : yakadamagazinear@gmail.com

الموقع : www.yakadhamagazine.com

إنَّ مجلة يقظة الإلكترونية غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

جميع الحقوقِ محفوظةٌ، ولا يجوز إعادة النشر إلا بموافقة خطية مسبقة من الناشر.

إلى الشّعرات البيضاء في رأس أمي،
إلى الخطوط العميقة في جبين أبي..
اغفرا لي كلّ تلك السّنوات.

المحتويات

- عكاز للكسر 8
- رائحة جوز الهند 12
- مشهدٌ بالمجّان 15
- رغيفُ الوطنِ لا يُشبِع 19
- جنون الكتابة 24
- ساعة احتضار 29
- رائحة العدس 34
- ذاكرة وفية 38
- وجبة عشاء بائتة 43
- مشروع الخوف 48
- كرنفال الكتابة 54
- أيلول البدايات 59
- لحظة اختناق الهواء 63
- فلفل حار 67
- هذيانٌ حقيقي 74

عُكّازٌ للكَسْرِ

"لقد مات". كنتُ ممدّدة على الفراش الأبيض الثّخين، ليس في غرفتي، بل في غرفة أمّي. شعرتُ ببردوة تتسرّب إليّ، لم تكن الأرضية الباردة هي من تُسرِّبُ هذه البرودة، كانت برودة من نوعٍ آخر. برودة تنخر عظمي وتقرصُ أطرافي.. "لقد مات".

لم أقلها بالطّبع، لكنّها راودتني في نفسي. كان هناك شيء ما ينقصني لأستطيع الاعتراف بحقيقة موته، كيف لي أن أقول أنّه مات؟! ما هو الموت أصلاً؟!

عينا أمّي تتقاطران حولي في كلّ مكان، إلا في وجهها.. أنظرُ إليها الآن وهي تجلسُ على طرفِ الفراش. مجرد عينان مليئتان بالماء، ليست دموع حتى.. إنّه فقط ماء!

أنظرُ حولي.. على السّقف عينا أمّي الحقيقيتان، كما كنت أعرفهما، تبحلقان في صورة أبي بفزع. على الخزانة.. عينا أمّي ذليلتان، تبكيان. على وجه أمّي.. ليست عينان، إنهما بلورات زجاجية خالية من كلّ شيء، إلا من الماء. إنها لا تبكي، هذا ليس حزن أمّي الذي أعرفه.

على الجدار أمامي.. صورته مُعلّقة، كعملاق حجري بشاربين مفتولين وعمامة بيضاء وعكّاز خشبي، هذا العكّاز الذي هوى على أجسادنا كثيراً، هذا العُكّاز الذي لا يفارق يده الجافّة، اللئيمة. "لم يُخلق العُكّاز للكسر.. خُلق للإتّكاء!" كانت تقول أختي التي تضمُّ أصابعها المكسورة لصدرها بألم.

ولكنّه كان يكسرنا دائماً، يرسم على أجسادنا خطوط وطرائق عرف والدي كيف يتقن تحديد مسارها على لحمنا المفتت. يرسُمُ علاماتٍ وآثارٍ لا تُمحي، لا تموت. أبي الذي مات، آثاره لا تموت.

مجدداً.. أنظُرُ إلى أمّي التي يسيل الماء من عينيها، ليست حزينة، لا يمكن أن يكون المرء حزيناً بهذا الوجه الجامد.

أنا محمومة، وهذه البرودة الغريبة تفسدُ حُمّتي. لا يمكن لي أن أهذي الآن، الهذيان لا يجوز في هذا المنزل.. كلّ الأشياء حقيقية بشكلٍ خانق. لقد مات بالفعل، ولكن هذه الصورة على الجدار تنفي بطريقة ما حقيقة موته، عينا أمّي الغريبتين تنفيان ذلك، العُكّاز المعلّقة خلف الباب، والتي لم تجرؤ إحدانا على كسرها تنفي ذلك، خوفنا الدّاخلي، الفزع والحيرة في عيوننا، نظرة الرهبة الأخيرة على صورته قبل خروجنا من المنزل، وكأن إحدانا تنتظر في أيّ لحظة خروجه من إطار الصورة المُذهّب ليمنعها بعكازه من الخروج. كل الأشياء تنفي موته!

جثته الباردة فقط ماتت، ما زال أبي حيّاً بداخلنا، مازال يجول في هذا المنزل.

ما زلنا نسمع في آذاننا صوت سبابه، ما زالت آثاره على أجسادنا، ما زالت قلوبنا تخافه.. ما زلنا خائفين، حتّى هذه اللحظة من الاعتراف بحقيقة موته، لأن كلّ واحدة فينا تدرك أن أبي ما زال حياً هنا، في مكان لا يعرفه أحد.. وفي أيّ لحظة يمكن أن يخرج من زاوية ما، من صورته المعلّقة ربّما، من عينا أمّي، من العُكّاز، من خوف إحدانا، ثمّ يهوي بعكّازه علينا.

يُمكن للمرءِ أن يبقى حيّاً.. حتى بعد موته. ويمكن للمرء أن يموت حتى وإن بقيَ حيّاً. لقد أماتنا أبي، وبقيَ حيّاً.

رائحة جوزِ الهند

يقولـــون أنّ الأمّهـــات حتّى وإن كنّ في قبـــورهنّ يقلقنَ على أحـــوالِ أطفالهنّ. أمّي.. أنا بخير جداً.. لا تقلقي عليّ، ألمانيا تُعطيني كلّ حقـوقي كلاجِئة، إنّني في حوض الاستحمام الآن، الماء دافئ جداً، أُحـرّكُ بقـدمي فقّاعاتِ الصّابون الطّائشة على سطح الماء، رائحة زيت اللافندر وصابون جـوز الهنـد تعبقـان في المَكـان. أنـا بخـير يـا أمّي، ولكنـني أبكي الآن، لا يمكنني أن لا أبكي، رائحة جوز الهند هذه تبكيني.

كُنّا عائلة سعيدة في وقتٍ ما، عندما كنتِ تلمّيننا بعد كلّ مساء من الأزقّة والحواكـير كقطـط شـاردة، ثمّ تـدفعين بنـا إلى المـنزل لتفـركي أجسـادنا المليئة بـالطين بـالحجر الأسـود وصـابون الغـار. كنتِ تفـركين بقـوّة حتّى تؤلمنا جلودنا وتحمر، ثمّ تحضرين الدلو الأزرق الصغير وتـدلقين علينـا الماء السّاخن.

كُنّا عائلة سعيدة.. عندما كُنّا نخرج متراكضين بمناشفنا المبللة وأجسادنا النظيفـة نحـو المـدفأة. لقـد أحببتِ الحياكـة، مـا زلتُ أذكـر كيـف كنتِ تفترشين الصالة الصغيرة وتحيكين باسـتمرار. كـان أخي يشـاهد التلفـاز، وأختايَ ترسمان.. وكنتِ أنتِ تحيكين الغطاء بخيوط الصـوف الرّماديّـة. ومع ذلك كان الجميع يتشاجرون.

ولكنّني كنتُ في المطبخ، أسمع اصواتكم وأراقبُ كعكـة جـوز الهنـد وهي تنتفخ بالفرن.. كـانت الرّائحـة زكيّـة، وكـان هـذا هـو عملي المفضـل، أن أستسلم وأطير مع الرّوائح الزكيّة. رائحة جـوز الهنـد أخـذتني إليـه.. صـبيٌّ يجلسُ بين عينيه الشّيطان، كما كانت تقولُ نساءُ القرية.

عندما ضربني عبّود، ركض بسرعة غاضباً ورمى بالحجر على زجاج نافذة أبو عبّود، في ذلك الوقت، الجميع رأى أنّ هناك شيطاناً يجلسُ بين عينيه، وحدي من رأيتُ ملاكين في عينيه البندقيتين اللتان لمعتا تحت ضوء الشّمس.

فجأة.. لم أعد قادرة على التّحليق مع الرّائحة.. لقد انتشَرت رائحة الأشياء المحروقة في الجو، أخرجتُ كعكة جوز الهند بسرعة لأتأكّد أنّها لم تحترق. لقد سمعت صوت القذائف وهي تصفر ثمّ تسقطُ في مكانٍ ما، اختبَأتُ بجانب الفرن، ثمّ اهتزّ المطبخ بأكمله، لقد احترقت يدي بجانب الفرن يا أمّي ولكنّي لم أقوى على الخروج، حشرتُ نفسي بين الثلاجة والفرن.. وتساقطت كل الأشياء أمامي ومن فوقي. سمعتُ صراخكم ولكنّي كنتُ خائفة جداً من الحركة، لم أستطع الخروج، قدماي استمرّتا بالارتجاف، لم أستطع سوى البكاء.

بعد وقتٍ طويل، عندما انتهى ذلك كلّه، التقطتُ أجزاءً من الكعكة المفتتة على الأرض وخرجتُ إلى الصّالة، حيثُ أنتي..

لم تكن الصالة موجودة، كان هناك الشّارع المظلم، لقد سقط نصف صالتنا على الأرض، لم يكن هناك سوى بضعة أُناس يصرخون ويركضون.. ركضتُ معهم، كنت أبحث عنكِ بقلب ملهوفٍ وأعين باكية وبقايا كعك جوز الهند، ولكني لغاية هذه اللحظة لم أجدكِ.. لم أجد أي أحدٍ منكم.

مازال قلبي ملهوفاً وعيناي باكيتان، لم تعد الروائح تأخذني إلى مكانٍ أفضل يا أمّي، إنّها تأخذني إلى ذاكرة مهمّشة ومحترقة.

مشهدٌ بالمجّان

"صباحُ الخير!"
صباحُ الخيرِ التي قُلتها لزوجتي ـ بينما لا زالت تفرك عينيها بإستغراب أثر استيقاظها للتوـ ذاك الصباح، ما كانت إلا عِبارة طمأنةٍ لها.. بسبب خروجي المُبكِر من المنزل، في الخامِسة تمامًا!

" إلى أين؟"
" إلى العمل" وخرجتُ مُسرِعًا، تجنبًا لأي أسئِلة أُخرى تنفي ذهابي إلى العمل أو أنَّ الوقتَ مُبكِرٌ جِدًا عليه.. وهي تعرف حقَّ المعرفة إلى أين أذهب.. لكنّي لم أكن سأُجيبها بالطبع "إلى ساحةِ الإعدام" وأنا أعلمُ مدى مُقتها وخوفها من هذا الأمر.

على الطريق، حششتُ خُطاي. الحياة بدأتْ الآن في المدينة.. أصواتُ حافلاتِ المدارِس ملأت الطُرُقات، ضحكات الأطفالِ وركضهم إليها، أبواقُ العرباتِ تزعق.. ومن بعيد صاحَ بائِعُ بيض " بيضٌ مسلوق" "بيضٌ مسلوق" البائِعُ الذي أتناولُ مِنّهُ فطوري إذ لم تعدّ لي زوجتي شيئًا في الصباح.

لوحتُ لهُ بيدي.. فجاءَ راكِضاً، جاراً عربتهُ الصغيرة، لقد اعتاد عليَّ حتى أنَّهُ قشر لي البيضة بنفسه وما أن أنهيتُها حتى ناولني بيضةً أُخرى، دفعتُ لهُ مع إضافة مبلغ جيد من البقشيش.. كنتُ سعيداً لأني وجدتُ في جيبي ما أُعطيهِ إياه، وغالِبًا كان سعيداً هو أيضًا!

للحظة.. شعرتُ أنّي قد تأخرتُ عن موعدِ الإعدامِ، كنتُ مُصرًا على أن

أُشاهِد إعدام المحكوم عليهِ اليوم، في هذا الوقتِ المُبكِر.. الحقُّ أنّي أُصرُ على حضور أغلب الإعدامات التي تحدثُ هُنا..

محكومُ اليوم عسكري سابق اتُّهمَ بالخيانة.. لا أعرف أي نوعٍ من الخيانةِ تحديداً، لكنني كُنتُ ذاتَ يوم محكوماً عليهِ بالإعدام أيضاً، بل وبتهمة الخيانة كذلك، وأيّ خيانة؟ مقالات في الصحف وفي مكتبة منزلي " لا ترضي الدولة" كما كان يقولُ لي القاضي.. لكن الإعفاء الذي أتى بعد الثورات شملني.. أما الآن فلا أظنُ أنَّ ثورة ما أو حتى أقل من ذلك، رُبما اعتراضٌ بسيطٌ، سيحدث!

"كُلُّ النَّاس محكومٌ عليهم بالإعدام مع وقف تنفيذ غير مُحدد!" تذكرتُ هذه العِبارة بغتةً..كانت قد صادفتني في إحدى الكتب التي قرأتها، ثُمَّ لم تُبارح ذهني، كُلنا محكوم علينا بالإعدام بطريقة ما.

وجودي هُنا يُذكرني بالحرية التي استعدتها، بالحرية التي فقدتها من قبلُ طويلاً، الحياة التي تُقتُ للعودة إليها.. بعد أن عِشت حياة كانت ـ بطريقة ما ـ على شاكِلةِ الموت!

راقبتُ العربة العسكرية وهي تنقله إلى ساحةِ الإعدام، من زنزانةِ التوقيف، سيقَ إلى المقصلة، معصوب العينين، مُكبلًا بالحديد، مُقيداً فيهِ ببشاعة، بهيئة ذليلة، لكنَّهُ وبكلِ تأكيد لم يكن يشعر بأي ذُل، لم يكن يأبه بأي شيء، ولا حتى بالجمع المُتجمهر ليُشاهِده.

أنا أعلم..كُنتُ بطريقة ما أفهمه، وأُقاسي الآن ذات الشعور الذي يعتريه، وأعيشه! هكذا أُعيد إليَّ شعوري القديم، أتلذذ بالحياةِ التي استعدتها، وتردعني نفسي عن أيِّ فِعلٍ قد أفعله، أو أي كلِمة أنطقها أو حتى أكتبها.

لا أحد ينجو هُنا، إلا حين يسجنُ نفسهُ بِنفسِه، قبل أن يُسجن فِعليًا. ومشهد كهذا بِالمجان، قادرٌ على المساعدة.

وفي صباح مدينتي البائِسة هذه، تجلى فيها المشهد الأكثرُ بؤسًا منها أمامي، تناثرت بُقعُ الدماءِ في كل مكان، بقعٌ كبيرة مِنه، والرأس تهاوى على الأرض.. لحظة واحِدة توقفت فيها المدينة بأكملها عن الحركة.. خُيِّل إليَّ أنَّها بكل ما فيها، وقفتْ لتُراقب نفساً آخر ينتهي هُنا!

ثُمَّ ـ وبِكُل اعتياديةـ عادت الحياة إليها، بعدَ انقضاء تلك اللحظة، تحركت العربات وعادَ الصياح، عادت رائِحة الزحمة لا تفارق أنفي.. أصواتُ الباعة، وصُراخُ أطفال آتٍ من بعيد!

رغيفُ الوطنِ لا يُشبعُ

حزيرَان ٢٠١٩م

حبيبتي سَمَر..

أكتبُ إليكِ من غرفَتي الْجَديدة، ذَات المسَاحة الشّاسعة، والجُدرانَ السماوية، والسَّرير الأوسَع، والطّاولَة الأنيقَة، والأرفُف الكَثيرة.

أحببتُ أن أرسل لكِ من عنوان شقّتي الجديدة، علّكِ تعودِينَ يوماً وتبللين جفاف كلّ تلكَ الأماكن.

في الأمسِ باغتتني وحشَةٌ هائلة، وانكمشَ شيءٌ في داخلي، شعرتُ بفراغ غرفتي يضيق على روحي ويتقلّصُ ليخنقني. نزلتُ أسيح في الشّوارع، حتى قادني الشّوق العارم لمنزلي القديم.

أتصدقين حبيبتي.. الأماكن أكثر وفاءً منّا، بينما نكون مشغوليين بالاستمتاع بلهفة بداياتنا الجديدة، أماكننا القديمة تتشرّب الغربة بوقت مبكّر، لقد اغترب منزلي قبل أن أغترب أنا. اكتسى بالوحدة والحزن. بدا خامداً يبعثُ شعوراً على الألم.

مررتُ في طَريقي على دكّانِ العم تَوفيق، كان المرور عليه وردنا كلّ صباح، اشتريتُ مقلاعين، واحدٌ لي، وواحدٌ لكِ... لا تقلقي، أنا بخير.

مؤخّراً بتُّ أفعل هذا كثيراً، اشتري علبتين من الحلوى، أضعُ ملعقتين على المائدة، أطبخ وجبة لشخصين، أترك الإنارة مضاءة قبل النوم، أرتب

المنزل وأجهزه كأن هناك من سيأتي فجأة، أتأنّق وأخرج وكأني على موعدٍ مع صديقٍ ما، ثم ينقضي هذا كلّه وأبقى وحيدة!

أنا اشتاقكِ، لا مفرّ من هذا، طوال الليل أنا أشتاقك، طوال النهار أتصرّف كأنّكِ موجودة.

أغالبُ حالةَ النستالوجيا التي تجتاحني مع آخر انطفاءةٍ لأشعة الشّمس.. حتى الأماكن تشتاقك، كل شيءٍ هنا يشتاقك.

أسيرُ على رصيفِ الشارع المسفلتِ بشكل سيء. أضواء المحلّات تفسد حلكة الليل. وأراقب الناس يسيرون ملهوفين ومسرعين، أعدُّ أعمدة الإنارة المضاءة بإنهاكٍ شديد. أقفُ طويلاً أمام الواجهات الزجاجية للمحلات، أراقب بفتورٍ إنعكاس الأشياء عليها، حتى يظنَّ ظانٌّ أني أحد المتسولين فيخرج يبعدني عنها.

لا تقلقي، أنا بخير، باتت هذه عادتي مؤخراً.

تلبّدت الغيوم في صفحة السماء، وبدا أن المطر سيهطل على وجه المدينة.

أسرعتُ إلى شقتي الجديدة وبيدي المقلاعين.

تذكرين..

لقد كان المقلاع لا يفارق أيدينا الصغيرة، وحفنة الحصى لا تلبث تنتهي من جيوبنا حتى نعيد ملأها. كنّا نلبسُ كالأولاد، ونلعبُ كالأولاد. عينانا المشتعلتان لا تعرفانِ معنىً للانطفاء. نتحيّن وقتَ الظّهيرة حتى يختَبِئ

النّاسُ في بيوتهم من شمسها الحارقة، وتسدلُ السّتائر الثقيلة من حرّها. نخرج متسللين إلى الشّوارع نطلق الحصى بالمقلاع من خلف شجر السّرو إلى زجاج النوافذ.. نخطئه غالباً، ونصيبه نادراً فيتكسّر الزجاجُ متناثراً ونفرُّ هاربتين.

لقد اشتقتُ إليكِ تملئين فراغي، وتسدّين ثقوبي. ترقعين الوقتَ بؤنسِكِ. تربّتين على كتفي الهزيل، وتاخذين بيدي، ويهون العالم.

لا تقلقي أنا بخير.

هطلت السّماء كما توقعت، غسل مطرها جدران هذه المدينة الباهتة، غسل عنها الغبار والوحل، وغفل عن غربتها ووحدتها، غفل أن يغسل الفقد المتجثّم على صدرها. غفل أن يزيح لحاف الحنين اللاذع عنها.. هطل وسار بالأتربة إلى البلاليع.

كل شيءٍ في مدينتنا تغيّر يا سمر..

الجدران، الشوارع، الأرصفة، المحلّات، الأزقّة.. حتى الأطفال، شاخت أرواحهم.

في الليل أتقلبُ وسط غرفتي المعتمة.. ووسط زخّاتِ المطَر أتقوقعُ في فراشي، أضمُّ ركبتَي إلى صدري، وهذه عادةٌ أخرى أنشأتها بعد غيابكِ. أشعرُ بالفقد، شيءٌ أعظمُ من الوحدة، شيءٌ مؤلم. أتمنى أن لا تشعري بهذا، في النصف الثاني من العالم.

أكتب إليكِ لأنني أكره معاناتي مع الليل، ومع الذّاكرة والحنين. أكتب إليكِ لأنفض بعضاً من هذا عنّي.

أكتب إليكِ أنتِ من غادرتني، وغادرتِ المدينة، وقررتي بجرأتكِ المعهودة القضم من رغيف الحلم، بينما اكتفيتُ أنا بالقضم من رغيف الوطن..

غير أنني أدركتُ متأخراً، أن رغيف الوطن ـ هذا الوطن ـ لا يشبع أحداً البتّة!.

جُنونُ الكِتابة
(هنْدمةُ الوَجعِ على الوَرَقْ)

كان علي أن أعرف أن عاقبة هذا الطريق هو الجنون والصلع، قبل أن أضع قدمي فيه..

كان عليّ بالأحرى أن لا أصدق سذاجة الذين ينيطون الكتابة بفنجان قهوة سوداء فحسب..

كان علي أخيراً أن أدرك أن الكتابة فعلٌ موجعٌ أكثر من هذا.. أنها تعني أن تنزع منك قطعة.. ذكرى.. خلية..

تمضغها كثيراً في رأسك، تعيشها مرة أخرى، ثم تبصقها أخيراً على الورق، ترصفها بالكلمات، وتَصُفَّها بصلابة السرد، تُهَندمُ الوجع ليبدو أنيقاً، تُنكِّره بحلّة جديدة كي لا يشبهك، ثمَّ هاكُمُ.. اقرأوا كتابيَ!!

لِأُنظف عقلي لم أستطع الاكتفاء بشربِ فنجان قهوة سوداء.. لأُخلّص نفسي من ترهات الأفكار، وبقايا اللحظَات المشوّهة، لأَكنسَ غبارَ الوقت عني.. كان علي تقشير اثنين كيلو بطاطس، وتقطيعها لمكعبات صغيرةٍ جداً، ومتساويةٍ جداً، لتفريغي.. ولتهييئي لعالمٍ جديد أستقبل فيه شخوصَ روايتي.

وأتساءل مع كل مكعبِ بطاطس صغير يسقط.. كيف أحكم قبضتي على شخوصي؟

كيف أمنعها من الفرار؟ من التسرب من بين خلايا عقلي؟

كيف أروضها؟ وأجعلها تنبثق بخيالي، كل شخصية على حدة، دون أن أستشفّ قوالبها من شخصيات أخرى، لكتّاب آخرين. كيف أهرب من لعنة شخوص الروايات الأخرى؟

وخصوصاً أولئك.. شخوص النهايات المفتوحة، الذين يتسربون من الروايات إليّ، ويقبعون في رأسي.. يجتمعون حول نصوصهم، ويهسهسون بغضبٍ ونقمٍ على الكاتب..

يلاحقونني وينغّصون نومي. يسحبون الوسادة من تحت رأسي، ويقرصون باطن قدمي.. حتى أقترف ذلك الجرم!

جرمَ أن أتعدى على نصوصِ كاتبٍ ما وشخوصِه، جرم أن أحدّد مصيرهم وأختار نهاياتهم بقلمي.

أنسلُّ بجسدي الهزيل وأوراقي الكثيرة صعوداً إلى العليّة..

شخوصي لا يحبون غرفتي المزدحمة بالأغراض. وخيالي يمقتُ مساحتها الواسعة ويضيق بشكلٍ عكسي فيها. وسطوع أضوائها يُخْفِتُ الأفكار الوليدة في رأسي.

أغلقُ باب العلية على عالمي، وصريره هو آخر ما أسمعه منه. وتنفتح كل أبوابِ العالم الجديد.

أُضحّي بكرهي للأماكن المغلقة، والتي بلا نافذة، من أجل شخوصي.

أجلسُ تحت الإضاءة الصفراء الشحيحة، وفي رطوبة الجدران ودبقها

أكتب. أكتب كما لم أكتب من قبل. أكتب ببطء، وكأنّ لدي كل الوقت لأكتب..

في العليّة، فراغ معدتي يساعدُ كمّ الأفكار الهزيلة لتتضاجع في رأسي، وتتولد من هزالها أفكاراً أخرى، أكثر امتلائاً وقيمةً.. وأكتب.

أشعر بشخوصي في أرجاء العلية، علياء تأتي أولاً، ككل مرة. تنقضُّ على النّصوص بنهمٍ وبلا حرف نداء، وبكل شغفٍ تهبني نفسها!

ألمحُ أحمد يتقوقع في الزاوية، بالشّكل نفسه الذي يتقوقع فيه بالماضي، وبينما كلّ شيء يسير إلى الأمام، باستثناء الذاكرة، أراقب أحمد..

لا شيء معه يسير إلى الأمام، فعل التقدم غير موجود مع شخص يحمل ذاكرة كذاكرته، وكذاكرتي..

تسحبه من قميصه إلى الخلف، وتجره حيث هي، وأشفق عليه، كيف ينجرف هكذا للخلف مع سيلان الذكريات؟! كيف أنه ينتظر يداً لتنتشله وتمسح عنه غبار ذاكرته المؤرقة، كأرق ذاكرتي!!

وليد الذي لا يتجاوز العاشرة لا يجلس هادئاً، يحوم دائماً بحثاً عن صديق.. في الشّوارع وتحت شمس الظهيرة القاسية الجميع يرفضه، حتى ينتهي به الفراغ لأن يجمع أعداداً هائلة من الحشرات، ويقضي وقته في البحث عنها وتسميتها.

يؤلمني كمّ الوحدة المتكدّس في عينيه، تؤلمني مشاهدته وهو يستبدل الأصدقاء بالحشرات!

أراهم كلهم يتوهجون حولي، فتضيئ عتمة العليّة، وتتخفف من رطوبتها، وأكتبهم، أكتبهم جميعاً، أسحب أنفاسهم، وأمصُّ دماءهم، وأسكبهم على الأوراق.

أُحكم قبضتي عليهم مانعةً أن يتمرد أيّاً منهم ويتفلّت من عقلي.

وأراهم أمامي يَخْفتون، ينطفئون، ويبهت توهجهم رويداً رويداً.

أبكي على فقدهم، وأستغل بكائي لمصلحة النصوص، أجمع بكائي وأشحذه، أدببه بالكلمات والأحرف، وأفرغه كخاتمة أدبية على الورقة.. «لا تحزنوا.. إنني بهذا أُخلّدكم، وأمنعكم من السقوط في قبضة الفناء الحتميّ لشخوص الخيال، ولننجوا جميعاً من لعنة الروايات المبتورة، وغير التامّة».

أرى آخرَ شعاعٍ ينطفئ منهم، أغلقُ الدفتر وأشعر بفراغٍ فضفاضٍ يتسع داخلي..

أعرضُ روايتي على أدهم، صديقي الوحيد. يقول مندهشاً أنهم جميعهم يشبهونني، وإلى حدٍّ بعيد لا أتصوره!!

وأفكر.. كيف بإمكان الكاتب أن لا يَسقُطَ في نصوصه، أن ينجو من كونه قالباً لجميع شخوصه؟!

سَاعةُ احتِضارٍ

نظرتُ إلى السّاعة..

ما زال هناك ثلاثة دقائق. أغمضتُ عينيّ وأنا أجدد العهد مع نفسي. سأموتُ مرتاحاً، سأبصقُ كلّ تلك السنوات التي مضغتها طويلاً مرّة واحدة، على الأقل لأشعر بقليلٍ من الخفّة قبل أن أموت..

دقّت السّاعة الثانية عَشرة..

إنّه اليوم الثّامن والعشرين من تموز، لقد بلغتُ عامي الثمانين.

أمسكت بالدّفتر البنيّ ذي الجلدة السّميكة، والتقطتُ القلم. سأكتبُ علّ كلّ أولئك الذين نسوني في حياتي يقرأون هذا، ويتذكّرون ـ ليس أنا ـ بل خطاياهم وإهمالهم تجاهي، علّي أتخفَّفُ أنا من الثّقل الجاثم على صدري، ويُثْقَلون هم بتأنيبِ الضّميرِ المستمرّ.

كان القلم في متناول يدي، وكلّ ما أستطيع فعله كرجل عجوز ووحيد، هو أن أكتب:

« أجلسُ في قعر وحدتي، بالغرفة الشّاحبة على سطح إحدى العمارات واطئة العلوّ، غرفة ليس بها سوى سرير متهالك بفرشة رقيقة، وخزانة أنيقة من خشب البلّوط اللامع، رماها أحد القانطين في شقق العمارة، فأحضرها البوّاب اللطيف إليّ. لا يوجد نافذة في هذه الغرفة، هنالك، في الأعلى، طاقة صغيرة، لا أستطيع النظر من خلالها، ولكنّها تساعدني على تخمين الوقت بشكل أكثر دقّة. هذا المكان الذي أعيش فيه الآن!

لقد كبرت! نعم، أدركت هذا الآن، ولكنه صعب جداً، أن تدرك مثل هذه الأشياء بوقتٍ متأخّر.. الأمر يشبه أنني كنتُ أركض طوال الوقت لأصل بسرعة إلى النهاية، ثم أفتح عينيّ فجأة لأجد أن النهاية الحقيقية فاتتني، وأنني أقف بنقطة يستحيل معها الرجوع، ويصعب التقدّم.

هكذا.. استيقظتُ فجأة، ووجدتني عجوزاً وحيداً يقبعُ مترقباً للاشيء، بغرفة معتمة لا نافذة فيها. ولا شيء يدلُّ على أنني ما زلت موجوداً سوى راتبي التقاعدي الذي لا يزال مستمرّاً، وطبق حساء الخضار الذي يحضره لي البواب البشوش ذو الوجنتين المرتفعتين يومياً.

لقد رأيت ليلة أمس رؤية. هي ـ على الأغلب ـ ما جعلني أرغب بكتابة هذه الورقة، لقد رأيت لحظة احتضاري.

في هذه الغرفة، على نفس السرير، حوالي الساعة الواحدة من بداية اليوم الثامن والعشرين من تموز، والذي أبلغ فيه عامي الثمانين كنت أحتضر.

لقد كنتُ أحتضرُ وحيداً، ولكنّي لم أكن لوحدي. كانت هناك ابنتي ذات الوجه المنتفخ، جالسة على حافّة السرير، تحمل طفلها بيديها وتقرقر بنزاقة عن زوجها المشؤوم.

كنتُ أحتضرُ وحيداً، ولكنّي لم أكن لوحدي..

كان هناك ابني، يطرق الأرض بقدمه وهو يتحدّث بعصبية على الهاتف، وبدا أن زوجته، التي تمرر أصابعها على تطريزات قميصها البارزة ضجرة جداً وغير معنيّة بشيءٍ يحصل..

كانتْ هناكَ زوجتي أيضاً، التي لن أسامحها أبداً، تجلس بملامح هادئة مبتسمة، تراقبني وأنا أحتضر دون أن تحرك ساكناً، وتمسك يدي بوداعة..

كنت متقززاً. وددتُّ لو أنّي أسحبُ يديّ وأغسلها بالسّائل المنظّف، تلك اليد القذرة التي أمسكت بيد صديقي، ثم كتفه، ثم شفتيه، ثم باقي جسده.

شعرتُ بالألم الشّديد يقبضُ صدري، كأن روحي مصابة بالمغص. وأفكّر الآن أنه لابد، ألم الإحتضار الذي سأشعر به بعد قليل. انتهت هذه الرؤية في ثانيتين، مجرد ثانيتين أرتني حقيقة حياتي الطويلة التي عشتها معهم.

أريدُ أن أقول هنا، أنني كنت أعمل بجد، فقط لنصل جميعاً إلى النهاية السعيدة، كنت أكدح بكدٍّ لأجعل الحياة تمرّ علينا بشكلٍ أهون. كنتُ أركلُ العقبات وأقتحمُ الصّعاب وأزيل الأشواك ليسيروا هم بشكلٍ أفضل في الطّريق، كنتُ أردمُ الفجوات من أجلهم، وأستخدمُ الحلول المؤقّتة لإنهاء المعضلات، كنتُ أنتظر أن نصلَ جميعاً إلى النهاية، ونستخدمَ الحلّ الأخير، ونعيشُ على الأساس الذي كدحتُ من أجله.

لم أنتبه أنهم ابتعدوا عنّي أثناء قدوم خريفي، وتساقطوا من حياتي واحداً تلو الآخر، كأوراق الشجر. لم أنتبه أنهم استخدموا الحلّ الأخير مسبقاً، وبنوا أساساً آخر بعيداً عنّي. لم أنتبه وأنا أعمل بكدٍّ كفأرٍ يجري بدولابه بدأبٍ مستمر، أنهم وجدوا النهاية مبكرا، وعاشوها بسعادة.

لقد فتحتُ عينيّ فجأة على خيانتهم لي جميعاً. فتحتُ عينيّ على صوت وقع تلك الوحدة على صدري. كنت مخدوعاً لفترة طويلة، ممنّياً نفسي

أن الحياة تُخبّئ نهاية مريحة لي وللجميع، بيد أنني استيقظتُ فجأة من هذه الخدعة، لأجدني عجوزاً وحيداً خذله الجميع.»

انتهت في ساعةُ الاحتضار: 1:00.

رائِحةُ العَدس

لقد حدث هذا وكأنّ قطعة اقتصت من ذاكرة عمرها خمسة عشر عاماً وتمَثّلت أمامي، بغتة وبشكل مثير للريبة، دون أن يثير ريبتي أنا تحديداً.

كانت الغرفة الأرضيّة مثالية جداً. تماماً كما بقيت في ذاكرتي طوال كل تلك السّنوات.. كانت شاسعة بشكلٍ مريحٍ للأعصاب، ولم يكن هناك سرير في المنتصف. الطاولة من خشب البلوط مازالت في مكانها، لامعة ونظيفة، كما ينبغي أن تكون دائماً.. طاولة الكتابة المفضلة، في غرفة جدي.

قرأت مرّة مقولة لنيتشه تقول أنّ المرء بإمكانه أن يصنع من الخيال حقيقة، ليخفف من وطأة واقعه. ولكنني كنتُ مبهوتة جداً، للحدِّ الذي لم يجعلني أنتبه إلى مدى كون هذا حقيقةً أم خيال.

كانت أشعة الشمس تدخل من النافذة الزجاجية، بشكلٍ جريء وغير متذبذب مضيئةً جميع أنحاءِ الغرفة، وكنت أزداد بهتة، وفرحاً في الآن ذاته. ركضتُ ناحية النافذة لأفتحها، بلهفتي القديمة، اللهفة التي عادت بعد خمسة عشر سنة.

كان كل شيء في الغرفة موضوعاً بمثالية عالية، تكدس الأوراق البيضاء على الطاولة، الأقلام المصفوفة بعلبة معدنية، الرفوف الخشبية الثقيلة التي تحمل كماً أثقل من الكتب، كان حنّا مينه صاحب الحضور الأكبر بينها، كان هناك أيضاً نجيب محفوظ، والعقاد، والرافعي، وكنفاني، كلهم كانوا هنا، أصدقاء جدّي. الذين أصبحوا أصدقائي، بعد وقتٍ طويل.

كنتُ أتحسسُ بأطراف أصابعي أسطح الأشياء، كل شي لامعاً ونظيفاً. لم تكن هناك أي ذرّة غبارٍ واحدة، كما كان جدي يحب أن تكون.

جلستُ.. على الكرسي الخشبي مسندة مرفقي على الطاولة، ومحدّقة بتصميم، نحو النافذة الزجاجية، كما كان جدي يفعل دائماً، حين يهمّ بكتابة سطرٍ ما.

وانكببتُ على الورق، كنتُ أكتبُ بلهفة محبوسة، لهفة تجمّعت وتكدّست فوق بعضها، طوال الخمس عشرة عاماً، لم يكن هناك ما يزعجني، لا نظاراتي الضبابية ولا جفاف القلم، ولا انحسار الأفكار، ولا ركاكة التعبير.

كتبتُ للمرة الأولى على طاولة خشبية، لا على سرير في منتصف الغرفة، كتبتُ بجرأة للمرة الأولى وجهاً لوجهٍ مع شمس العصرية البرّاقة، لا في عتمة غرفتي الخانقة.

كتبت صالحة، الطفلة الوحيدة التي لم ينظر لها أحد. كتبت مهدي، الشاب الذي يحمل أكياساً ثقيلة من الحزن فوق كتفيه الرقيقين. كتبت دعاء، وهي تركض حول النافورة مع القطّ الأبيض ذي الشّارب المقصوص. كتبتُ أمّهم، التي تنصّلت من دور أمومتها، وفرّت مع أول رجلٍ طرق الباب.

كتبتني في كلّ هذا، أخرجتني دفعة واحدة. وكنتُ سهلة جداً، كما لم أكن من قبل، انسكبتُ برويةٍ على الورق ككأس ماءٍ صافٍ، دون أي عكرة، دون أي تردد.

كنتُ أعيدُ حياتي القديمة، وكنتُ أعيشها في داخلي مجدداً، شممتُ رائحة النّارنج وأنا أكتب دعاء وهي تزيّن شعرها بطوق الزهور، شممتُ رائحة ماء الورد، نفسها التي كانت تشمّها صالحة خلسة من نافذة المطبخ، شممت كل شيء، بحقيقية تامّة، دون أن تزعجني رائحة العدس القادمة من المطبخ، أو رائحة البيض المقلي المتسربة من بيت جارتنا المصرية.

كان كل شيء حقيقياً للمرة الاولى منذ خمس عشرة سنة. حتّى صحيت فجأة، وتلاشى كلّ شيءٍ كأنّه لم يكن.

كنت على سريري، في منتصف الغرفة، ووجدتُ نظارتي تحتي. داهمت أنفي رائحة العدس مختلطة مع البيض المقلي، مفسدةً الحلم الذي كان حقيقة في داخلي، وتعالى صوت صراخ أمي من الصالة.

نظرتُ على الأوراق بجانبي، لم تكن دعاء موجودة في أي صفحة. ومهدي كان غائب الملامح، مهمّش الصورة. وصالحة لم تستطع أبداً شمّ الرائحة المنعشة لماء الورد من المطبخ. بخيبة كبيرة، أدركتُ أن هذا الشّيء الذي صرتُ إليه الآن هو الحقيقي.

ذاكِرةٌ وَفيّة

بدا الأمر وكأنّ العالم يحزمُ حقائبه ويستعدّ للرّحيل، كل الأشياء مضت من أمامي مسرعه وبعجلة شديدة، دون النّظر إليّ، أو إلى أولئك الذين لم تكن لديهم القدرة الكافية على المضي، الذين لم يستطيعوا اللحاق بهذه العجلة المتدحرجة إلى الأمام. وحدها الذاكرة من تمكّنت منّا. وأجادت سحبنا إلى الخلف، كقطع حديدٍ مُمغنطة.

وفي حين كنّا عالقين في تجاويفها كأعشابٍ بحرية لزجة، ننتظرُ بأعينٍ باكية الخطّاف الحديدي ليخلصنا من هذا العلقان كانت كل الأشياء تعبر من فوقنا بشكل مؤلم، بأقدام حديدية. ثقيلة ومدبّبة.

مجدداً.. إنّه الليل، ومجدداً.. إنّه سيَلانُ الذّاكرة.

الليل في هذه المدينة يحفّزُ الذّكريات لتطفوا إلى الأعلى، كفقّاعاتٍ من الصّابون تمتلئ بكثافة. لقد هربتُ من كلّ تلك الأماكن التي تستفزُّ الذكريات، هنا، لم تَعد تلك الروائح والأصوات القديمة تصل إليّ، كلّ تلك الأشياء تلاشت من حولي، لكنها قبعت بوضوحٍ عميق في ذاكرتي.

كنت أتمنى دائماً أن يأتي ذلك الوقت الذي تُشذّب فيه أطراف ذاكرتي جيداً، وأُمنح فيه فصلًا جديدًا من الحياة. أن يعبر الزمن من فوقي برحمة، لكنّه لم يفعل. عوضاً عن ذلك، منحني مدينة تمتلِئ بالغربة. مدينة شرسة بأنيابٍ حادّة يكشفها الليل. مدينة بعينين مخيفتين تنفتحان فجأة بعد المساء، كخفّاشٍ لئيم يعزف لحن الغربة، شامتاً بكلّ أولئك المريضين بالذّاكرة.

بنفس الطريقة، كانت سميّة تأتي دومًا، ولم تزل.

لم تتوقف عن عادتها الدّؤوبة في التسلل إليّ والظهور فجأة في ذاكرتي، على نحوٍ مخيفٍ ومرعب. كل الأشياء تتلاشى إلى نقطة سحيقة من العدم فور ظهورها، وحده الشّعور بالذّنب من يطفو على سطح هذا الوجود الضيّق الذي أُحصَرُ فيه، ووحدي من أحمل ثقله على كتفَيّ.

لم تكن سميّة يوماً رحيمةً بي.

حتى بعد موتها، نبشت لي ذكريات كثيرة تجعل من كل هذه الليالي جحيماً مؤرقاً.

كانت تقف بطولها الفارغ ونحفها البشع عند باب البيت الأبيض مقشّر الدّهان، تناديني من بعيد بصوتٍ أجش وقلبٍ لم يعد يرغبُ في مواصلة إبقائها على قيد الحياة.

وكنت أنظر إلى جسدها الطّويل، كيف أنّه بالغ في نحفه بشكلٍ مريع، حتّى بدت من هذه المسافة البعيدة، كعودِ عذقٍ جاف، معلّق بشفقة على الباب.

تحضرني سمية بهذه الصورة دائماً، ولطالما عجزت عن تذكرها بشكلٍ آخر يختلفُ ولو قليلاً. إنّها أفخاخُ الذّاكرة، تحبكُ نفسها بشكلٍ مؤذي.

وحدها أمّي من رأت في نزاقة سميّة وسلاطة لسانها شيئاً يستحقُّ الحب. كانت سميّة تظن أنها الإبنة المثاليّة على كلِّ هذا القدر من الحب الذي أغدقته أمّي عليها. لكنها لم تكن كذلك. لقد كانت الابنة المريضة والهزيلة المثيرة للشفقة. عرفتْ أمي أن سلاطة لسان سمية وجفافه هو الأمر الوحيد الذي تستطيع أن تظهرَ به نوعاً من القوة، كانت سمية ترد

على كل الخالات اللواتي يعزينها بمرضها على أنهن مجرّد كتل سمينة قبيحة مليئة بالكورليسترول والروماتيزم. وأمي التي كانت تعرف أن سمية بهذه الطريقة تحاول دفع الشفقة عنها، لم تحاول محاسبتها يوماً. كلتاهما اشتركتا بهذه النقطة، محاولة إبداء القوة.

من سقف هذه الغرفة الضيقة، تسقطُ عليّ قشور الدّهان الأبيض المتيبّسة، وفي الشقوق الصغيرة والعميقة لهذا السّقف، أرى نتفاً من الذّكريات على وشك الهطول.

مجدداً، إنّها هذه المدينة الغريبة. ومجدداً إنّها الغربة التي تقدّم لنا عزاءات الذّاكرة. ويهطلُ صوتُ سميّة، تناديني، وأتمنع عن الإجابة.

يأتي صوتها متوسلاً لأن أذهب معها، برجاءات حارّة للمرّة الأولى قبل أن يتخلى عنها قلبها. وأتجاهلها، بعنادٍ حاد للمرّة الأولى، دون أن أخاف من قبضتها المليئة بالعظام البارزة والمفاصل المخيفة.

وتذهبُ سميّة، إلى الأبد.

في ذلك الوقت، عندما كنت أركض باستماتة قصوى للوصول، لم ألاحظ غزارة العرق الذي ينزلقُ على جلدي، ولم أنتبه إن كنت أبكي أم لا، لم انتبه إذا كانت الشمس ترافق ركضي السريع، ام لا. لم انتبه إذا كان قد قيل لي "سمية لحقها الكلب" ام "سمية قتلها الكلب" كنتُ معلقاً بشيءٍ واحد فقط. وهو تلك الرجاءات المتوسلة التي وصلت إليّ بوقتٍ متأخرٍ جداً.

عندما وصلتُ، كان عددٌ قليل من الرجال يتحوّطون حول شيءٍ ما، هذا الشّيء لم يكن الكلب. كانت هناك يدان ترفعان جسداً طويلاً بالغ في

نحولته، وتهزّانه بقوة. كانت هناك عينان جاحظتان تنظران باتّجاهي. كانتا فارغتين تماماً من الحياة، لكن بطريقة ما، كانتا فزعتين جداً، بقدر اتساعهما، كانتا مخيفتين.

وصل إليّ، هذا الفزع الهارب من عينيها، وتلك الانقباضة التي اصابت قلبي في ذلك الوقت، والحرقة في عينيّ، سكنت في داخلي إلى الأبد..
ثم ركضتُ.. مجدداً.

لم أنتبه إن ركضت شمس الغروب معي أم لا، لم أنتبه إن كانت سمية قد تركت شيئاً آخر في داخلي أم لا، لم أنتبه إن كان هذا الطريق الصحيح للمنزل أم لا..

كنتُ فقط أهرب من هذا الفزع الطّافح من عينيها، كنتُ أشعر به يستمرّ في ملاحقتي، ثمّ عند بركة الماء الصغيرة، أمسك بي.

يحضرني هذا المشهد مجدداً، مثل نقطة مظلمة في داخلي، وأعيشه بكاملي.. تبالغُ ذاكرتي بوفائها، وتغدِقُ عليّ بدقّة كلّ هذه التّفاصيل.

كانت السماء ملونة بدرجات الأرجواني والبرتقالي، وكان قرص الشمس الذهبي يغرق، رويداً رويداً، في البركة. وكانت البركة هادئة جداً، تنعكس عليها الشّمس، بعيداً قليلاً، كان هناك فراشة ما تطير، وانتشرت رائحة زهر الليمون واللوز المر مع نسيم الغروب، كانت الطبيعة رائقة جداً، كانت الطبيعة تسخر من حزني، تسخر من الأشياء التي سكنت في داخلي.

صفحة السماء صافية، ولم تكن هناك غيوم ترغبُ في البكاء. وحدها عيني الغائمتين هطلتا بغزارة.

وَجبةُ عشاءٍ بائِتة

ولأنّي لم أفلح في معاودة إيجادك، سأدأب على صنعك، على إعادتك كما كنتِ، لتعيديني كما كنت. سأخلقك من أي شيء، من نشارة جلدك المتساقطِ، من ذرات رائحتك المتشظية في فضاء غرفتي، من شعيراتك الصغيرة على فراشي، من قطع لحظاتنا المختبئة في درج مكتبي. أريد أن أجمع كل تلك الأشياء وأعجنها بيدي، أن أُشكّلكِ كقطعة خزفية، وانفخ فيكِ الحياة؛ لتعيدي إليّ الحياة.

أنتِ من التقطتِ كل تلك المسميات الحزينة التي التصقت بظهري كحلزونات لزجة وثقيلة، أنتِ من شذّبتي قشوري الخارجية، ومسحتِ عن جلدي أسمال الرذيلة، من ألبستني الأناقة الباذخة، وأخرجتني من العدم إلى وجه الحياة رجلاً جديداً، مع بزّات بعدد أمزجته وذكرياته.

أريد إعادة وجودك، لأتوقف عن كوني مجوّفاً وفارغاً، لكي لا أشعر، في ليلة الخميس، وأنا أسير بهذا الشارع، عائداً من العمل مع حقيبة سوداء ثقيلة، ومنزعجاً من ليالي آذار التي تتذبذب بين الشتاء والربيع، أنني مجدداً، عدتُ لكوني "وحيداً ليلة الخميس".

فشلت في كل هذا. وعدتُ لمواجهة الحياة وحيداً، بوجهٍ مليئ بالندوب، وبذاكرة متفتقة تسقطُ منها تكتلات الماضي الجافة. منذ تلك اللحظة التي تأرجحت فيها بين أبي وأمي، قبل أن يفلت أبي ذراعي، ويتركني معلقاً بذراعٍ واحدة في يد أمي. ومنذ تلك اللحظة عشت بنصف الجسد الذي أمسكَتْه أمي، وكنت في توقٍ للتخلص من قبضتها؛ لأعيد الثبات لنصفي الآخر.

اعتقدت أنها حالما تترك يدي سأحلّق نحو الأعلى، هناك حيث يعيد جسدي توازنه، ولم أفطن ولو لمرة أنها كانت تمسكني عن الوقوع في الهاوية!

لم يكن بوسعي إدراك أن ذلك المنزل الأشبه بقنّ الدجاج، والذي حشرت فيه أمي مخلفات زيجاتها الفاشلة، كان بطريقة ما، صدفة واقية من هذا العالم.

كنا، أنا والثلاث أخوات غير الشقيقات، نتاج تذبذباتها ومحاولاتها المستميتة في اخراج نفسها من خانة الفقر والنساء المنكودات الحظ، إلى خانة الثراء وزوجات رجال الأعمال. وكان المنزل يشبه مأوىً للمجانين وغريبي الأطوار، قبل أن يتحول، من خلال عملية بطيئة نسجها مرور الزمن، إلى منزل المومياءات الهامدة، دون أن يضم أي معنى من معاني الحياة الحقيقية. وبدل أن يحوي امرأة واحدة منكودة الحظ، حوى أربع نساء من ذوات الحظ المنكود والعاثر. وفتىً وحيد تعبثُ به الحياة.

كلّ واحد منا اضطر لاستخدام وسائل التأقلم البدائية ليتعايش بسلامٍ مؤقت مع النتاج الآخر لزيجات الأم الفاشلة، وفي حين كانت أمي تحتفظ بنا كضمان يؤمّن لها استمرار تدفق النفقة التي تصرف جزءاً كبيراً منها في محاولة استقطاب رجل أعمال جديد، كنا نحن نتدهور ونسقط إلى بقعة سحيقة ممسكين بأيدي بعض، عن كرهٍ حقيقي.

ويظن الواحد منا أن خلاصه يكمن في أن يفلت تلك الأيدي المتخشبة ويغادر قن الفقر هذا، غير مدركين لفخ العالم الخارجي، وأن الحياة كانت تعدّ لنا بؤساً يفجر حنيننا إلى العودة لذلك القنّ، ودرساً قاسياً

يعلمنا أن السقوط مع الأيدي المتشابكة أكثر ثباتاً من أن تسقط وحيدا بذراعين متأرجحتين في الهواء!

عندما خرجت إلى العالم، ونفح وجهي هواؤه الجاف، فشلت في القفز من فوق أوحال القذارة والبرك العكرة، ومن تجاوز العقبات الناتئة في منتصف الطرق.

كنت أترنح طويلاً حتى أسقط في نهاية الأمر على وجهي، دون أن أجد، ولو لمرة واحدة، يدان تمسكانني، أو ظهراً آخر أريح عليه ظهري المتعب. وأثناء سيري في أقاليم الحياة المتعرجة، دون أن أنتبه، كانت قشرة قاسية تنبت فوق جلدي المندّي، قشرة مليئة بالاشواك الغليظة والحادة كحسك القنفذ، كانت تبعد كل شخص يحاول الاقتراب مني والتربيت على ظهري، وتدفعه بعيداً.

وحدكِ أنتِ من أزلتي تلك الأوحال عني، والتقطت باصابعك النظيفة الأوساخ العالقة في ثناياي، شذبتي قشوري، ووهبتيني جلداً أملساً. سيرتني في هذه الحياة تحت جناحكِ الملائكي وضحكتكِ النّدية.

توقفتُ في منتصف الشارع، وأنا أتذكر أن غرفتي الباردة تعد لي الآن منضدة الوحدة وعشاءً بائتاً من الليلة الفائتة. كان كل شيء في الشارع يضج بالحياة، رائحة الشواء تنبعث من حديقة المنزل المجاور، وتنتشر في المكان مختلطة بروائح الدجاج المقلي وبهارات هندية لمطعم برياني في الجهة المقابلة.

قررت أن آكل في إحدى هذه المطاعم، كي لا أعرض نفسي لمواجهة غير عادلة مع الوحدة التي ستقذفها وجبة العشاء الفائتة في وجهي. اقتربت من أحد الكراسي البلاستيكية، وجلست أتأمل الوجه الآخر للحياة عبر

الواجهة الزجاجية لمطعم الدجاج المقلي، طلبتُ وجبة لشخص واحد، وأنا أراقب الفتاة العشرينية التي تجلس على الطاولة قبالتي وهي تقضم أفخاذ الدجاج وتمص عظامها بشهوانية بالغة، قبل أن تتنبّه لنظراتي المتفرجة عليها وتغير مكانها.

لا منجى لي، الفراغ يتمدد ويتوسع في داخلي، والوحدة تنهش عظامي. لا مهرب لي، سأعود في نهاية المطاف إلى غرفتي، وأواجه وجبة الطعام الفائتة والوحدة التي عادت للانقضاض على حياتي، ستنبت الأشواك الغليظة على قشرتي مجدداً، وستعود كل تلك المسميات للالتصاق بظهري.. "الرجل الفارغ، الفتى القنفذ، منبوذ الأخوات الثلاث، ابن منكودة الحظ"!!

ماج داخلي، وتحجرت الدموع في عيني، وهرعت إلى المنزل. سأخلع أسمال الغياب التي قمّطتني بها، سآخذ كل لحظاتنا السابقة، كل تلك الذكريات، سأجمع رائحتك وخصلات شعرك، سأعصر كل تلك البقايا واستخلصك منها، سأعزف لكِ المقطوعة الأخيرة في هذا العالم، يكفي أن تعودي، أن تضيئي كل تلكَ الأجزاء التي انطفأت بغيابك، وتعلقي على شمّاعات ذاكرتي مزيداً من اللحظات الجميلة.. وكما أركض الآن، بنفس الجهد، سأعيدكِ إلي.

تجعلكت بذلتي، وارتخت ربطة العنق، ولا أدري في أي مكان تركت فيه حقيبتي، تقدمت إلى باب الشقة وأنا أفتحه، بذلك التصميم العازم الذي تحول إلى ذهولٍ أخرس جفف عرقي البارد.. كانت واقفة هناك، بفستانها الليلكي، مع وجبة عشاء جديدة، وشمعة تضيء عيناها وتطرد الوحدة بعيداً عنّا.

مَشروعُ الخوْف

(اللوحة الخامسة عشر)

لقد أحببته، ألفته منذ اللحظة الأولى التي صرَّ فيها الباب الخشبي وفُتِح.. دخل بهدوء ووضع حقيبته السوداء أرضاً، جال بنظره في المكان، ثم ثبّت نظره عليّ. أنا تحديداً، دون الجدران الأخرى، وابتسم. ابتسم بذلك الشّحوب الذي سأعتاده لاحقاً.

عاود الخروج، ثم عاد محمّلاً بلوحات كثيرة وحقائب صغيرة متعددة.. أغلق الباب وهو يعاود تفحص الغرفة.. أزاح السرير من المنتصف إلى الجانب الأيمن..

وافترش الأرض غطاءٌ ناصع البياض..

تماهى البياض مع الغرفة حتى اختفت ملامحها.. وامتلأت الجدران بلوحات ملونة ومبهجة، نصب كرسياً ولوحة فارغة في منتصف الغرفة، ثم نظر إليّ.. أنا الفارغ الوحيد بين الجدران.. وابتسم، بذات الشحوب! أدركتُ أنني سأحمل على ظهري ـ في الأيام المقبلة ـ مشروعاً باهراً أعظم مِمَّا حملته بقية الجدران، علمتُ الآن أنه قد عُلّقَ عليَّ أملاً واسعاً، وحلماً خليقاً بالتحقيق!

راقبته طوال السبعة أيام، يرسم بدأب حثيثٍ ومتواصل.. يعمل بدقة وحذر كمن ينسج عمره كاملاً بيديه. أدركتُ أنه يريد طهو حلمه على نارٍ هادئة، أنه لا يريد تعجيل الخطوات حتى لا يسبق الطريق وتفوته النهاية!

حين جاءت تلك الليلة الباردة، أدركنا بخيبة مرّة أنه يجب أن يسرع في طهي الحلم، وأن النّار الهادئة لم تعد تسعفنا في هذا الوقت الضيق والمحشور بين عدّة أيام..

كان نائماً على سريره عندما داهمته نوبة سعال مفاجئة، استمرت لدقائق طويلة حتى احمرت عيناه وبدأت الدموع تطفو وتهتز داخلهما.

سعل طويلاً إلى أن بصق في النهاية عدة بقع حمراء، خرجت من حلقه المريض إلى الغطاء الأبيض المبقع بالألوان..

نبض داخلي شيءٌ ما، شيءٌ زعزع ركوني الطويل والهامد، وأحالني من كتلة إسمنتٍ جامدة إلى كتلةٍ خائفة ومترقبة..

نظر بعينين مفتوحتين إلى الدماء.. ثم عاد أدراجه ببطءٍ مفرط ليتلحف ببطانية السرير.

وأنا اهتززت، ماج شيءٌ غريبٌ في داخلي.. أردت أن أصرخ به "قم واذهب إلى الطبيب" لكنَّ شيئاً في خارجي لم يتحرك!

نام هو... وبقيتُ أنا أنظر إلى البقع الحمراء التي شوهت بقية الألوان المرشوقة بعشوائية على الغطاء الأبيض.

أفزع الأحمر القاني بهجة الألوان، وأحال الفرح المنشور إلى قلقٍ عارم يفتكُ بالبياض الملون، والحلم المرتقب بأمل، إلى نهاية حتمية مذيلة بالفاجعة.

لغى بلونه المتعجرف كل البدايات الحالمة وأحالها إلى نهاية واحدة مفزعة توشك بأن تقتحم المكان في أي لحظة!!

عاود الرسم في اليوم التالي.. بذات الدأب الشغوف، وأنا كنت أنظر إلى وجهه المتعب وعينيه الحالمتين، ويسأل داخلي بوجع "لماذا تواصل بكل هذا الجهد؟!"

أراه يواصل رشق الألوان دون الاهتمام لِبقع الدم التي أضحت بنيّة اللون، وأواصل أنا محاولة بصق السؤال خارج إسمنتي الملعون، علّه يتحرك، علّه يذهب إلى الطبيب!!

أنهى أُولى لوحاته التي سأحتضنها.. ثمّ سار ببطء وعلقها في جانبي الأيمن، أمسكتها بهدوءٍ وحذر، ربّتُ عليها في كل أوقاتي وحرصتُ على أن لا أُبللها برطوبتي..

عاوده السّعال، نوبة سعالٍ أخرى أفقدته القوة حتى هوى على ركبتيه وبصق عدة بقع حمراء..

وأنا فزعت مجدداً، جفت رطوبتي ولان الإسمنت الصلب داخلي.. راقبته يسند ظهره على خشب السرير بتعب..

لعدة ساعات بقي هكذا.. ولعدة ساعات بقيت مضطرباً وحزيناً، أنظر إلى الإرهاق يسيل من وجهه، وعينيه تطفحان بالخوف والتوجس.. إلى أن نهض فجأة ورفع الفرشة الرقيقة من على السّرير الحديديّ، سحب بضعة أوراق نقدية ملفوفة ببعضها، ارتدى معطفه وخرج.

شعرت بأن الخوف الذي آلان إسمنتي وجفّف رطوبتي قبل قليل قد همدَ نوعاً ما، لعلّه ذهب إلى الطبيب، سينفق تلك النّقود على صحّته، هكذا فكّرت.. حتّى سمعتُ صرير الباب مجدداً، ورأيته يدخل بأكياس كثيرة من النايلون الأبيض، أهال ما بداخلها على السرير، والتقطَ منها فرشاً كبيرة مدببة الرأس وهو يهمّ بإكمال لوحته.

زمجر شيءٌ في داخلي، أيُّ اهتمام يعتريك لتفعل هذا؟! ما الشيء الذي يحثّك على رمي حياتك جانباً بهذه الطريقة؟ لا يمكن لي ـ انا الصلب غير القادر على للحركة ـ أن أفهم كيف لحلمٍ ما أن يتجاوز رغبة المرء في العيش؟!

مرّت الأيام طويلة، يعجبنها الخوف ويمطها حتى تبدو أزلية لا تنتهي. تلاشت البهجة، وباخت الألوان السعيدة، وحده السّعال بقي يذكرنا بقرب النهاية الحتميّة..

أراه يلوّن لوحاته بالأزرق والأسود، ويبصق الأحمر على الغطاء المفروش. يزيّن القلق في لوحاته، ويكلله بالألوان الكامدة حتى امتلأتُ بأربعة عشر لوحة.. كلّها يفيض الخوف من جوانبها ويزيدني خوفاً.

تأتي اللوحة إلي، فآخذها على ظهري، أنظر إليها طويلاً وأجد الخوف ينطق بداخلها.. خوفٌ خائف.

اللوحة الخامسة عشر هي القفل العتيد الذي سيختم به هذا المشروع الخائف.. ركعنا طويلاً علّ النهاية تقبع منتظرة. علّها لا تتسرع المجيء إلينا، فتفجعنا في منتصف الحلم.

حاولت طرد الخوف من داخلي، علّ اسمنتي يعاود التصلب فيحمل اللوحة الخامسة عشر كما يجب، علني أقدر على حملِ مشروعٍ مرتّبٍ للحلم، بدلا من الجسد الهزيل المتهاوي أمامي.. أدركت أن النهاية المفجعة تحوم هنا، عندما سقط على الأرض مغشياً عليه ليومين، عندما بتُّ أسمع تقيّئه المستمر في المرحاض بجانبي.

اكتملت اللوحة الخامسة عشر أخيراً، وعُلّقت عليّ، في المساحة الأخيرة المتبقية منّي. وانهار لوحده في منتصف الغرفة. هكذا، ممدداً على الغطاء الملوّن، مبحلقاً بعينيه تجاهي!

وأنا اضطربت، طرقتُ الأرض وزمجر كل شيءٍ داخلي، صرختُ مراراً بلا، اهتزّت اللوحات، وأوشكت على السقوط قبل أن أمسكها في اللحظة الأخيرة.. عاتبتني الجدران الثلاثة بنزاقة على تصرفي، ولكن.. ماذا يفهمون هم؟!

كل واحدٍ منهم يحمل مشروعاً هنيئاً للحلم... السعادة، الأمل، الطّفولة. وحدي من حملتُ الخوف والنهاية المفجعة، وحدي من عُلّق عليّ آمالاً كبيرة، صَعُبَ عليّ حملها، أنا الذي لان اسمنتي في أول انهيارٍ له!!

صعبٌ أن أحمل الآن كل ذلك الحلم وحدي! صعبٌ تثبيت اللوحات الخائفة على ظهري لحين خروجها إلى وجه النّور في هذا العالم.. صعبٌ أن أحمل حلماً ما لإنسانٍ هوى أمام ناظريَّ!!

كرْنفالُ الكِتابَة

استيقظت مفجوعةً جراء حلمٍ مفزعٍ راودني في الثلث الأخير من الليل.. جحظت عيناي باتجاه السقف، وأصابعي المرتعشة مرّت من فوق صدري الذي يعلو ويهبط إلى وجهي، ومسحَتْ طبقة العرق الملساء التي تشكلت فوق شفتي وحاجبي، التقطتُ بضعة أنفاسٍ في محاولةٍ هشّة لتهدئة جسدي، كان حلقي جافاً، ولهاثي مستمرٌّ بالوتيرة ذاتها وكأنني كنت أعدو عملياً على سريري!

شربتُ من كأس الماءِ بجانبي، وأنا أستطعم طعمه البائت.. كان حلماً مفزعاً، ودليلاً مخيفاً على تقاعسي الطويل عن الكتابة، كنت أركضُ في شارع بيتنا القديم، أعمدة الإنارة الشحيحة مضاءةً بإنهاكٍ شديد، الغيوم متلبدة في صفحة السماء، وخطٌّ ضوءٍ مائلٍ يسقطُ على جسدي ويرافقه في ركضه. صمتُ الشارع يشبهُ صمت المقبرة، ولهاثي المتزايد وحده يخترقُ أذني.

كنت أرّطب شفتيي الجافتين بلساني، وأركض بوجهٍ مقطّبٍ خلف النّصوص المتراقصة أمامي بعهرٍ مستفز.

ابتلع غصتي بحلقٍ جاف، وأمنع دموعي من الانحدار وأنا أرجو كل تلك النصوص أن تكفَ عن هذا، وتتوقف عن ممارسة عنجهيتها وغطرستها عليّ، أن تعود لتردمَ ذلك الجزء المتساقط مني.. كان ذلك مفزعاً إلى حدٍّ كبير.

لم أنم بعد هذا الحلم أبداً، بل الكابوس، إن صح التعبير. طفقتُ أسعى

مفكّرة بين جدران غرفتي ذات الألوان الكامدة، ما الحل لمثل تلك المعضلة؟!

كنت أعتبر ضجيج ذاكرتي وأزمة افكاري كرنفالاً مبتذلاً سينتهي في آخر المطاف، عندما تؤاتيني النصوص بسلاسة وتنحدر من قلمي كماءٍ عذب، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لم تنبض تلك الرغبة الحثيثة في الكتابة، ولم تعد أصابعي الرخوة تشتد حال تراقصها على أزرار آلة الكتابة التي دأبت على صنع مقبرة وهمية فوقها..

وبينما تدوس أصابعي أهوي أنا إلى العدم، إلى نقطة سحيقة، وأجر موتى مقبرتي المفبركة ـ لأنعشهم ـ إلى ذات النقطة، أراقب ذلك الجزء المنفي من الحياة وهو يتحرك، تدوس أصابعي، وتدبّ الحياة في أوصالهم، ترتعش أجسادهم وتتحرك وفق ما أمليه عليهم.

كنتُ أزهو بأصابعي التي تجلسني على عرشٍ وهميٍ من الملك، وأتحسس بانتشاءٍ لذيذ تاجي اللامرئي، بينما أمسك صولجاني من منتصفه.

أنا أكون الملكة. عندما أكتب، أصبح سيدة كل شيء، ملكة الأشياء، أميرة الحكايا الميتة، والجثث المنسية.

لكن.. توقف كل هذا عن الحدوث. ارتخت أصابعي، ولم يعد الملك ينبغي لي، سُرق صولجاني، وهوى التاج إلى نقطة معدومة من الوجود. أكتب، فتخرج الكلمات طوباوية ومستهلكة، تنزّ بلاهةً وسذاجة، وابصق على كل هذا الابتذال بينما أرمي أكوام الورق جانباً..

زريبة الأفكار التي تهتز ككتلة هلامية في رأسي تكاد تصيبني بذبحةٍ فكرية، ولا مجالاً واحداً خليقاً بترشيحها خارج جدران عقلي!

طوال تلك الفترة حدَّثتُ ـ بلا جدوى ـ العزلة الآفلة منذ زمنٍ، وناشدت الإلهام المتشظّي في فضائي المختنق، علّ بضعة نصوصٍ تسقط كنيازك وتضيء شحوب أوراقي الفارغة.

أين هي العلة؟ أهي أمي؟ تقف منتصبة بمنتصف الصالة كفزّاعة قش تخيف الإلهام، وتطرد العزلة بعصا مكنستها كساحرة من أفلام الكارتون. أهو صراخ بياعي الشارع، ومعمعة شاحنات النقل أسفل شقتنا؟

قررت أن أعزم قراري الأخير، سأغادر المدينة، وأمكثُ في قرية جدتي. لقد مكثت ٢٣ سنة في هذا المكان حتى لبسني النحس وركبني الشؤم وارتخت أصابعي وتشابهت الملامح والوجوه في نظري.. لم يعد هناك حكاية جديدة، إحساس جديد، أستشفّه منه. حفظت حكاياته، والأزقة والحوانيت والشوارع وأعمدة الإنارة والسقوف والمداخن عن ظهر قلب.

أعلنتُ قراري بثقة، والدافع الحقيقي لرغبة الكتابة يحرضني بشدة على الفوران في وجه كُلٍ من اعتراض أمي وتقطيبة أبي العابسة..

حضرت مع أمي ـ كضربة أخيرة لتكيفي مع هذه المدينة ـ عرساً لابنة الجيران، أُقيم في الحديقة المكشوفة لمنزلهم، حيث العشب الأخضر الناعم والشجيرات الصغيرة المزينة احتفاءً بعروس هذه الليلة.

جلستُ على أحد الكراسي البلاستيكية بجانب أمي بينما كان الضجيج يتزايد من حولنا.. تصدح الأغاني، وتقرع الكؤوس، وتتعالى الضحكات. وحده رأسي كان فارغاً كما لم يكن منذ فترةٍ طويلة، وأحسست وسط

هذه المعمعة بالسكينة والهدوء الداخلي، وبأن روحي تحلق بتؤدة إلى الأعلى، وتغيب في أفق السماء المعتم، وشعرت بأن الأفكار الخليقة بالخروج تقف منتظرة بهدوءٍ وديعٍ على ناصيتي، وتتهيّأ لترشح من رأسي وتسقط في مكان ما..

لمعت عيناي، واشتدت أصابعي، وتأجّج الشغف في داخلي، إنه الليل، وهذا هو وقت صعودي على العرش، أخذت حقيبتي، وركضت باتجاه المنزل وأنا استشعر الإحساس الأول لرهبة الكتابة.

كان الحل المرغوب هو نتيجة لوقوع حدثين متعاكسين، الثبات والتذبذب، الهدوء والصخب. إن الضجيج الذي في الخارج هو ما صنع لي الهدوء والسكينة اللازمان، الاكتظاظ هو ما أعطى روحي فرصة للانعزال بأفق السماء.

دخلت إلى غرفتي، وفتحت النافذة. تسربت نغمات هاربة من ساحة العرس إلي، وشرعت أصابعي تطرق على الحروف البارزة للآلة.

لقد انفك الشؤم، وزوى النحس بعيداً عني، وشعرت وأنا أعود الى الإمساك بصولجاني وارتداء تاجي، بأن عنقي أُحيط بربقة السحر التي اعادتني مجدداً لكرنفال الكتابة.

أيْلولُ البِدايَاتْ

إنَّها نهاية أيلول، ولطالما كان هذا الشهر مرتبطٌ بكِ في ذاكرتي، مع كل تلك اللقاءات المسروقة التي تسيل في أروقة الذاكرة مع أول انفجارٍ لها.

بالنّسبة لي لم يكن أيلول، بخريفه الأرجواني وأوراقه الميتة، سوى "أيلول البدايات" لا غير، ولا أعرف كيف لنهاية ما أن تكتب في إحدى أيام أيلول تحديداً!

صبيحة هذا اليوم كنت ذاهباً لأول مقابلة عمل لي، إنها آخر بداية أصنعها في أيلول الحالي.

شجرة الليمون التي ذبلتْ زهورها وفقدت أوراقها، دأبت بوفاءٍ معتاد نشر رائحة الليمون المنعشة مع كل هبّةِ ريح. كان بائع اليوسفي الذي يعتمر قبّعة رمادية من خيوط الصوف، ينادي على اليوسفي بصوتٍ أجشٍ وعال، والأولاد يسيرون باتجاه المدرسة، بشعورهم المدهونة وحقائبهم الملونة، تخترق ضحكاتهم جدار صباح أيلول الأخير لهذا العام.

عندما داهمتني بركة ماء موحلة، تشكّلت بفعل قطرات ماءِ سجادٍ مغسول تم نشره على شرفة إحدى الشقق في العمارة، تجاوزتها بخفة محافظاً على نظافة حذائي، بالتزامن مع فتى الإبتدائية بجانبي، الذي وقف أمامها فترة طويلة مضيّقاً عينه بتركيزٍ بالغ، قبل أن ينجح في تجاوزها بقفزة رشيقة..

لم يسعفه الوقت لإعلان فرحته حتى فقد اتزانه وسقط على مؤخرته ملوّثاً لباسه المدرسي، صرخ غاضباً بينما ضحك بقية الأولاد..

ولمعت أمامي تلك القاعدة العتيقة التي اضمحلت في ذاكرتي كبزيقة رُشَّ عليها الملح.. «أننا يجب أن لا نركز على شيءٍ ما تمام التركيز، وأن لا نبالغ في إعطاء العقبات أمامنا أكبر من حجمها الحقيقي».

ولكنني للّحظة هذه، مازلت حين أوجّه تركيزي بكامله، وجميع منحنيات عقلي لتجاوز عقبة ما، أكون ـ في الوقت ذاته ـ أتعثر بعقبة أخرى، لا تتبيّن لي إلا بعد أن ترتطم مؤخرتي بالأرض.

لم أكن قط جيداً في مسألة إدراك الأمور بالوقت المناسب. كل تلك الأشياء والحقائق البديهية لا تتكشف لي إلا بوقتٍ متأخرٍ لا يُحسن معه النظر ولا تغير النمط الفكري الذي عشتُ على أساسه.

لقد كنت غافلاً عن كل معطيات الحياة، وعن تجلياتها الواضحة المتكشفة بسهولة لأي شخص آخر. كنت أرغب بشيء ما بشدّة تُسْقطُ غلالة سميكة على عقلي وتعميني من رؤية حقيقة هذا الشيء، وهذا الأمر بالذات هو الذي أبعدني عنكِ وأسقطني في هفواتٍ لم أرها إلا لحظة مغادرتك.

أحياناً علينا أن نبتعد عن الشيء بالقدر الكافي حتى نستطيع رؤيته على حقيقته.

القرب الشديد لم يكن خياراً أنسب مع امرأة محفوفة بالخطوط الحمراء مثلكِ. إن أي علاقة في العالم تستمر في التقارب إلى حدٍّ معيّن، وأي خطوة بعد ذلك الحد هي هفوة فادحة تفتح مجالاً واسعاً للتنافر والبعد. الوقوف عند حدٍّ ما هو دلالة كافية للقرب، وعدم تجاوزه ضمانة جيدة لإمكانية استمرار هذه العلاقة.

وفي حالتي أنا، لم أكن أتوقف عند أية حدود، كنت نهماً للتقارب المثالي الذي لم يذقه أحد، للتماهي والامتزاج معاً بطريقة خاصة، لأن يتداخل اعتمال مشاعرنا معاً كنوتات موسيقية.

ولكني بأفعالي تلك كنت أخلق عثرات متنامية وهفوات شتى في جسد علاقتنا المتعب. ولم يسبق لي أن تفطّنت لوجودها إلاّ لحظة تشكل مسافة كافية ترسم لنا أبعاد الفراق ومشاهده. وقتها أدركت فداحة هذه الحقيقة، وبدا لوهلة أن هذه الحقيقة بالذات كانت متكشفة للجميع باستثنائي أنا، الغافل الدائم، قليل الإدراك.

لقد كنتِ بالنسبة لي شرارة الاتقاد الأول، لهفة البداية المتأخرة، والحقيقة اللذيذة التي سقطتْ عليها يدي. ولكن، ما فائدة كل هذا إذ لم يشفع لي شيءٌ عندك؟ إذ لم يشفع لي حبي المتلهف لكِ منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة.

كان كل خطئي أنني رغبتُ بكِ بشدة، ومنذ الطفولة، حين طلبت منا المعلمة أن نكتب أمنيتين ونرميها في صندوق تحقيق الأماني، كنتِ أمنيتي في الورقتين.

كان عليّ أن أبتعد مسافة كافية تعطيني القدرة لرؤية تشكلات العلاقة بيننا ومنحنياتها الحقيقية، القدرة على رؤية أماكن الخدوش وتجنبها، كان عليّ أن أفعل شيئاً آخر غير مواصلة التقرب وتجاوز الحدود.

لحْظةُ اختنَاقِ الهَواء

أنا خائفة..

هكذا اعترفت لنفسي التي تجلس قبالتي على الكرسي، وأنا أستشعر صراحة من يبوح لنفسه أوّل مرّة..

أنا خائفة..

عيناي فزعتان.. الخوف يهرول ويركض في صدري، وأنا ألهث من جريانه السريع، قلبي يلهثُ كذلك، أحاول أن أتجاهل نباح الكلب المرعوب..وأستمع إلى تكات الساعة المنضبطة بصعوبة

تنفُّسي يضيق، وأشعر بأن الهواء يختنق في فراغ الغرفة المعتمة، وغير كافٍ لأخذ شهقة واحدة طويلة تطمئنُ قلبي.

أصاب بالفزع الدّائم من فكرة اختناق الهواء، لا أخاف من أن أختنق أنا ويضيق صدري، بل أخاف من أن أشهد لحظة اختناق الهواء أمامي، فأهلع وقتها، إذ أجدُني مضطرة لتدبير تنفسي مع حقيقة عدم وجود الهواء!

أسدّ بسبابتي إحدى فتحتي أنفي كما أوصاني الدكتور فؤاد، أتنفس ببطء من الفتحة الأخرى، وأشعر بإمكانية أن يسعفني الهواء لفترة أطول مما أظن..تتسرب طمأنينة هزيلة إلى قلبي المرتجف، أُهدِّئ خوفي، وأمسح بيدي الأخرى على صدري، لا بأس.. لا بأس!
أواصل التحديق إلى نفسي الجالسة على الكرسي برخاوة، أُذهَلُ من اللامبالاة الممطوطة على وجهها، ويتزايد الفزع داخلي.

تخيفني رؤيتها بهذا البرود، ما الذي يجعلها تتأبط الهدوء بسهولة؟ ألا ترى أن الطمأنينة مصلوبة على أعمدة الخوف؟ ألا ترى الفزع وهو يلوكني بين فكّيه ويبصقني على هذا السرير البارد؟ ألا ترى العرق المالح ينفذ من مسامي وجميع فتحات جسدي ويسيل بغزارة مبللاً الفراش؟

هي بالتأكيد لا تشعر بما أشعر به! لا تعرف أن ثقل اللحاف المرميّ فوقي كالحجارة، أنه يبدو كنصف جدارٍ انهارَ على جسدي وأعجزَ أطرافي عن الحراك.

استَمرُّ في التنفس بحذر، وأراقب نسبة الهواء المكتوم في الغرفة. أعاود تفقّد نفسي الأُخرى، أنظر إلى البرود يطفح منها، وأروح أغبطها. كيف لها أن تجلس وسط هذا الخوف متَّكئة على الطمأنينة تحرّك قدميها بملل؟!

أراقبُ نظرتها الطالعة من الفراغ إلى الفراغ.. تبحلق بذات النّظرة الشاردة في الزاوية نفسها منذ ساعات. وتبدو كمن خُلِقَ للاشيء إلا لينظر في الفراغ.

وأتساءل.. هل تراقبُ ـ بهذه النظرة ـ لحظة اختناق الهواء؟!

وأهلع، يزداد خوفي وهلعي، يعاود جسدي اللهاث. أضع يدي على فمي لأكتم لهاثي وأترك قلبي وحيداً في جريانه اللاهث، لا أريد أن أسحب المزيد من الهواء.. يجب أن تتوقف نوبة هلعي أولاً، يجب أن تعود الكهرباء الآن!

توقف الكلب فجأة عن نباحه الشّاحب.. خَفَتَ نباحه وتبدد في ظلمة السماء.. لقد قتلوه!! نعم جاءوا في الظلمة وقتلوه كما قتلوا والدي.

صرختُ بهستيريا في نفسي الهامدة على كرسيّها "تحركي، افعلي شيئاً، سيأتون إلينا".. لم ترد! وأجدها تنظر إليّ كمن يعاين جثّة باردة.

أعاود كتم لهاثي، وأنظر إليها باستغراب.. هل يعقل أنها تخاف دون أن يظهر عليها الخوف؟! هل يمكن أنها متمكّنة لدرجة أن تلاعب الخوف وتسايره؟!

ولكن لا.. لا يمكن للخوف أن يكون وديعاً هكذا، لا يمكن للمرء أن يتّفق معه ويخفيه كما يخفي الحزن والغضب والنّدم.. لا يمكن لأحد أن يوطّن نفسه على الخوف.

لقد كذب من قال أن الحب هو سلطان المشاعر، الخوف هو السلطان، بوجوده تسقط كل المشاعر المعلقة على شماعات القلب، الخوف وحده قادرٌ على أن يهشم المرء لشظايا هَلِعة لا يعوّل عليها.

أراقب ذعري المتزايد يطفح ويسيل إلى فراغ الغرفة، دون أن يصل إليها أو يمسّ هدوئها المريب!

أستمع إلى تكّات السّاعة، وقد بدت أكثر وضوحاً بعد انكتام نباح الكلب خارج الجدران.

تكّة، تكّتان، ثلاثة تكّات، أربعة تكّات... خمسة؟ أين التكّة الخامسة؟

فزعتُ أكثر، وأشعر بقلبي سينفجر من هول فزعه، لا يمكن أن تتعطّل السّاعة بهكذا وقت!

لا يمكن أن تتواطأ الصّدف لترمي المزيد من أكوام الخوف في قلبي.. لقد توقف العالم، لم يعد الوقت يمارس مهمّته في المضي، سيختنق الهواء لا بد!
أصرخ بها، نفسي الأخرى.. وأفزع أكثر، أشعر بأنني سأموت من الفزع.. لا يوجد لي صوت! صوتي لا يُسمع.. لقد اختنق الهواء في العدم، لا يوجد هواء لينقل صوتي!

أمدّ يدي من تحت اللحاف الحجري لأستنجد بها.. الطمأنينة المنسكبة على جسدها تُعلّي من وتيرة هلعي. تتحرك اخيراً، تمشي ببطءٍ مميت، وتشعل الضوء!

. . .

اشعلتُ الضوء، وصعدتُ بيدي لأدير المروحة علّها تأتي بالمزيد من الهواء لهذه الغرفة الخانقة. جلستُ على الكرسيّ وأنا أنظر إلى السرير المقابل.. يجب عليّ ـ فعلياً ـ أن أتوقف عن تصوّر نفسي خائفة، والكف عن لصق الهلع بخيالاتي المريضة!

فُلفلٌ حارّ

وأنا أستلقي على الأرضية العارية، أفرد ذراعاي كصليبٍ منسيٍ لم يحمله أحد.. العرق ينبع من جسدي ويسيل عليه بانسياب، والحرارة تزداد بوتيرة عالية. إنها القاهرة، وشمسها التي لا ترحم تواصل اشتعالها الحارق حتى في أوقات الأصائل. مشتعلة كطرقاتها، كلعلعة سيّاراتها، كصراخ سكّانها في الشارع أسفل شقّتي..

" سأتعوّد" أقولُ، كما في كل مرة. أحكُّ باطن قدمي بالأرضية، وأنظر نظرة توسّل أخيرة للمروحة المعطوبة، أراقبُ شفَراتها برجاءٍ عارم، علّ معجزةً تديرها فتجلب الهواء لجسدي المبتل!

شعرتُ لوهلة بأنني أطفو على سطح شيءٍ ما، وأتأرجحُ بخفّة، هذا الشّعور الذي يأتيني دائماً قبل أن تطرق الغفوة باب إدراكي بقليل..

نفس الشعور في كل مرة، يستحضره شيءٌ ما في داخلي.. دون أن أدري، وأعيشه بكامله. أندفع إلى الأمام وأحلّق عالياً، أشعر بهبوبِ الهواء الدّافئ على وجنتي، وأرى سماء دمشق قريبة جداً حدّ لمسها، ألمح شمسها تطل بوداعة كما في كل عصرية، وأعود متأرجحة إلى الخلف، فيتلوّى شيءٌ ما في بطني من فرط الحماسة، تلمسني يدا أمي الحانية، وتدفعني، فأتأرجح مجدداً، إلى الأمام.. إلى الخلف، إلى الأمام.. إلى الخلف.. ويهبط قلبي إلى الأسفل..

أشعر بهبوطه الآن، استحضر كل تلك الأرجحة، وأعيشها مجدداً، أشعر بالهواء يطرقُ وجهي، بيدا أمي، بالوسادة المتهدلة للمرجوحة المعلّقة على شجرة اللوز المر، برائحة زهر الليمون المنعشة، بحفيف الهواء في

أذني مع كلّ دفعة، ويشهق قلبي ذات الشهقة التي كنت أشهقها عندما تدفعني أمي بعيداً..

وأبقى متأرجحة، تتداخل في رأسي نصوص مختلفة، أشعر بالحروف تختلط ببعضها وتموج أمامي، تطير علامات الترقيم حولي، وترقص النقاط باستفزازٍ مزعج يدعوني لألتقطها..

أرغب في الكتابة مجدداً، يغتالني هذا الشعور، وأحسّ بأن هناك شيئاً ما يبكي في داخلي كلّما تأجّجت فيّ هذه الرغبة.. أغمضُ عيني عن كل تلك النصوص، وتداهمني أسئلة لا أعرف من أين تجيء، ولا إلى أين تذهب.. أشعر وسط هذه الأرجحة باللاوجود.. وأتساءل، هل أنا موجودة حقاً؟! أشعر وكأن شخصاً ما قام بمسحي منذ سنتين، منذ لحظة لجوئي إلى هنا! يخفق قلبي لهذا السؤال، ما الذي يدل على أني موجودة؟.. لا شيء!

أفزع، وتستمر الأرجحة، ويذهب عقلي ويجيء حتّى يلمع سؤالٌ آخر.. ما الذي يدل على أني لست موجودة؟ لا شيء كذلك!

وارتاح.. وتعاود أسئلة أخرى التسلق والزحف إلي، وتلتمع ذات الأسئلة المعاكسة!

أهزّ رأسي علّها تطير وتختنق بفضاء الغرفة. تؤاتيني نتفٌ متفرقة من شتات الذاكرة المتساقط على عتبات الزمن، نتف مؤرّقة، لا هي تُنسى فتريح، ولا هي تُحفظ فتكون ذكرى كاملة يعوّل عليها.

مسطرة الآنسة نجاح وهي تمتدُّ لتنظيم الطابور الصباحي، القطُّ العجوز لا يتوقف عن موائه الحزين في كل ليلة، جدتي تستمرّ في إضافة تفاصيل جديدة لحكاية الشاطر حسن كل مرة، أحرك شفتيّ دون أن أُنشد "حماة

الـديار عليكم سـلام"، وجـوه المعلمين مكفهـرة وعابسـة تحت شـمس الثامنة صباحاً، رباط حذائي المفكوك، خريطة الأستاذ عليّ، العصا تهـوي على يدي التي نسـيت أن أقلّم أظافرهـا، الشـاي ينسـكب على جريـدة أبي صباح السبت، جدتي تنشر قرون الفلفل الحار ليجفّ في ضوء الشـمس، سعاد تسقطني في بركة الوحل، أمي تفرك شفتي بالفلفل الحار لأني نعتُّ سعاد بالحقيرة.. أدور..،عقلي يدور.. وأشعر بأني أخيراً سأسقط نائمة..

يرنّ الهـاتف، تتوقـف أرجوحـة الـزمن عن دفعي. أفتح عينـاي، وتتلاشـى الاسئلة، تشنق النصوص نفسها في مدى الغرفة الضيّق، تصطفّ النقـاط، وتنأي الذكريات في ركنٍ قصيّ.

إنه فايز.. تنهد القلق بداخلي، وقـررتُ أنـني لن أجيب، أو ربمـا سـأجيب، وأطلب منه مهلة أسبوع آخر حتى أتم الكتابة!

سأكذب مجدداً، إنه الاسبوع الثاني الذي أتوانى فيه عن هـذا. أنـا أخـاف، أرفض أن أقول له بأنني أتممتُ الكتابة، وأنني أتلكّأ خوفاً من فكرة النشـر، وخوفاً من أن أخاف إذا نشرته.

أشـعر بـالخزي من نفسـي، بـل وأشـعر بالعـار من لحظـة الشـجاعة الـتي دحضت هذا الخوف لوهلة أقل مـا يقـال عنهـا أنهـا وجـيزة، الوهلـة الـتي جعلتني أوافق على كتابة قصة فايز.

فايز الثائر الذي ترك جامعته وحلمه، وسار بين جموع المتظاهرين. فضّل مصـلحة الـوطن على مصـلحته، ودحض حلمـه في سـبيل أحلام الـوطن، صدّق أن هناك ربيعاً حقيقياً يلـوح في الأفـق المعتم، كمـا صـدق البـاقون ذلك.

فايز الذي نسج آماله مع آمال الوطن، ووقف في سبيل تحقيق كل حلمٍ يقع على عاتقه المجروح، قبل أن يعرف أن للأمل ضريبة كبيرة تحوّلَ الأحلام والطموحات لشلالات من الدم المنسكب في الشوارع والأزقة، قبل أن يعرف أن الأحلام في هذا الوطن هي مجرد سراب محض، وأن هناك ثمناً غالياً لمن يحلم بغير رغيف الخبز، ثمناً يميتُ أمه، ويقتل صديقة، ويبعد حبيبته، ويشرده عن وطنه!

قبل عدة أشهر..

في آب تحديداً، صبيحة يوم الجمعة، وصلتني منه رسالة على البريد الإلكتروني، مفادها أنه قرأ إحدى القصص التي كتبتها على مدونة منسية لا تتعدى زياراتها ثلاثة مستخدمين في اليوم! وأنه يرغبُ بشدة أن أكتب قصته كاملة، مقابل مبلغ مالي متواضع.. لم يدر في بالي أيّ فضول عن ما هيّة قصته، فاسمه المعنون بالايميل «فايز السوري» جعلني أُخمّن قصته على نحو صحيحٍ ومؤسف، جعلني أتذكر نوع الخوف وطعمه في فمي، ذلك الخوف المختلف عن أي خوف، الخوف الذي سبّبه مقالي العفوي في إحدى الجرائد السورية. عاود الطعم لاذعاً في قلبي وفمي، ولم أُعقِّب على رسالته تلك.

بعد عدّة أيام وصلني بريدٌ آخر، يقول فيه "إن كان موضوع الكتابة يشكل لكِ خوفاً أو حرجاً فإنني على استعداد لاخفاء اسمك كما يجب.» نقطة. انتهى!

قرأته، وشعرتُ بأنني أصغر حجماً. وأنه من العار عليّ، أنا التي تباهيتُ دائماً بكوني كاتبة في الجرائد والمجلات، أن أمتنع عن الكتابة لسبب الخوف!

أدركتُ أنهم نجحوا في زرع الخوف بداخلنا، على الرغم من كل تلك المسافات التي تفصلنا، هكذا، كقرن الفلفل الحار الذي فركته أمي بشفتيّ، والتي جعلتني لذوعته أمتنع عن نعت سعاد بالحقيرة للآن، على الرغم من أن أمي ميتة، وعلى الرغم من المسافة التي تفصلني عن سعاد، وعلى الرغم من أنها لا زالت حقيرة..

هكذا، بنفس الطريقة، سرى الخوف في داخلنا، تربينا عليه وعلى تجنب ما يسببه لنا، كما نتجنب كل ما سيسببُ لنا حرقة الفلفل الحار.. رغبتُ في تلك اللحظة بالاستطالة عليه، بل بنفيه تماماً.. ولاحت بوادرٌ من الشجاعة المزيفة في داخلي، وداهمتني على حين غرة من الخوف، وشعرتُ بأن هذا الخوف الحار قد حان أوان دحضه، وأن عليّ «ككاتبة» أن لا استسلم لطعمه اللاذع، وأن الشجاعة ستعطيني طعماً ألذ، ينسيني حرورة الخوف ولذوعته.

ووافقت... وها أنا ذا، أدفع لحظة هذه الشجاعة خوفاً مضاعفاً يمنعني من النوم، ويزيد من أرجحتي بين الغفوة واليقظة..

رنّ الهاتف مجدداً وأضاء باسمه.. التقطته وأنا أجيب أخيراً :
"أعتذر بشدّة، لم أستطع إكمال الكتابة على نحو جيد".

هَذيانٌ حَقيقِي

أريد أن أخبرك كم أن هذه الفجوة التي اتسعت بغيابك.. تنقبضُ في هذا الحين على بعضها وتتلاشى. الآن وأنا أجلسُ على سريري، منذ عشرة أيام، يهدّني التّعب والمرض، أشعر بأنني أراك.. كما لم أرك من قبل..

أراك تلوح لي من السقف، تبتسم من النّافذة، تطلُّ عليّ من شقِّ الباب. تمسّدُ شعري بهدوء، تقول لي ببرود وكأني مصابة بنزلة بردٍ لا أكثر، أنّ هذا التّعب سيزول.

كنتُ أراك في كل التفاته، وأشعر بكَ.. بهالتك الغريبة، بجسدك الطويل. وأستغرب، كيف تبدو وكأنّك الآن ــ في منتصف هذا الوهم ــ حقيقيٌّ أكثر من السّابق؟

أنا أهذي، وأنا أدرك ذلك.. ولكن هذا الهذيان يعجبني، هذا الهذيان يبدو لي حقيقياً أكثر من الحقيقة نفسها.. هذا الهذيان يحبب لي الوهن الذي في جسدي.

لم أعد أستطيع أن أقرأ كما في السّابق، عيناي تذويان وتنطفئان بسهولة، عقلي يدور ولا يعي أيّ جملة، أتخيلك هنا، قريباً جداً، بعظامك البارزة، وجسدك الطويل. تجلسُ على الكرسي بجواري، بكل هذا الكمّ من الهدوء واللامبالاة تتمتم بجمل الكتاب، وأنا أستمع بجديّة مطلقة، ويزعجني هذا الشعور بالتواطؤ الكبير بين الرتابة في صوتك وبين رتابة نصوص موراكامي. أخبرك، بصوتي الواهن والضعيف، أنني لا أحب أن أقرأ لموراكامي، فتنزعج، أعرف ذلك من تقطيبة حاجبيك، ثمّ تهزّ رأسك موافقاً.

أراكَ تلتقطُ كتاب غادة السّمان، أعلنتُ عليك الحب. يبتسم داخلي، ولا أخبرك أنّني أكره هذا الكتاب أيضاً. تشتعلُ في داخلي رغبة أن أراك تنطقُ ـ أنت المستخفّ اللامبالي ـ بمبالغات غادة العاشقة.

أغمضتُ عينيّ.. وجاءني صوتك، يهمسُ بالمبالغة الأولى..
"لأجلك..
تولد الأمواج
ويرتسم البحر على الأفق
لأجلك..
يضحك الأطفال في كلّ القرى النّائية
لأجلك..
تتزيّن النّساء
لأجلك..
أخترعت القبلة"

ويأتي طيف القبلة في خاطري، لم أستطع جعلك تُقّبلني، هذا الهذيان في رأسي يرفضُ فكرة القبلة، أتخيّلك تقرب وجهك منّي، وتنظر بتركيزٍ كمن يعاين شيئاً ما، ثم تهز رأسك كمن ينفضُ فكرة مستحيلة، وتعاود القراءة.

لا بأس. اقرأ.. القبلة لا تنسجم معك، سواءً في هذا الهذيان أم في الحقيقة. نعم، تابع القراءة، لقد أحببتُ هذا التّضاد الشيّق بينك وبين غادة.

أراك ترفع عيناك نحوي، تخطف نظرة ثم تعاود القراءة، هل أبدو غريبة بالنسبة لك؟ أنا أدرك ذلك، ولكني اعرفني وأنا على هذا النحو أكثر مما

كنت أعرفني في السابق، أنت لا تدرك كم سعادتي بخسارة ذلك الجزء الكبير مني، لا تدرك كم إني أصبحت أكثر خفة من قبل.

مازلتُ أذكر كل تلك الاماكن والمواقف التي سقط بعضي فيها، ولم يعاود النهوض، مازلت أذكر أين ضاعت أجزائي الصغيرة، ولم إحاول إعادتها، أنا أعرفني أين، أعرف أين ضاعت كل تلك الأجزاء، لكن لا رغبة لي في استعادتها.. الحقيقة أنني أفضل ما صرت عليه في هذا الوقت، أفضل نفسي الخاوية، التي لا تأبه لشيء، أفضلني وأنا أهذي بك الآن، وأراك تسيطر على هذا الهذيان بنفسك، تبتعد متى ترغب، وتقترب متى ترغب. لاتأتي إلا في المساء الذي تحبه، مع ذهاب الخادمة وزيارة الطبيب، أفضّل أنّك تتصرف حتى في خيالي، وفق رغبتك.

ولكن أينك الآن؟ أنا متعبة إلى درجة أنني ما عدتُ قادرةً على تخيّلك، إنني واعية بفضل تلك الأبر المعلقة في وريدي فلا أستطيع أن أهذي بك، منذ أصبحتُ أفضل حالاً وأنا أشتاقك. ولكنّ هذا المساء سألتني الخادمة التي وضعت لي طبق الحساء باستغراب:
"ذلك الرجل لم يعد يأتي للمنزل؟"
"أيُّ رجلٍ؟" سألتها.. بعينين مفتوحتين.

قالت وهي تهمُّ بالذهاب : "الرجل الذي كان يقرأ كتبك دائماً!"